## معجزات وعلامات

تتحدث روايات الإنجيل الشريف الأربع عن المعجزات التي أجراها سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا). فالإنجيل الشريف حسب راوية يوحنا يذكر أن سيدنا عيسى المسيح أجرى العديد من المعجزات العظيمة (30:20)، لكنه يخص بالوصف سبعاً اعتبرها جديرة بالاهتمام. وهي تحويل الماء إلى خمر(2:1-11)، شفاء ابن رجل من حاشية الملك عن بعد (4:46-52)، شفاء رجل مشلول (5:1-16)، إطعام خمسة آلاف شخص بواسطة بضعة أرغفة وسمكات (6:1-15)، المشي على الماء (6:16-21)، شفاء الأعمى منذ ولادته (9:1-7)، إقامة شخص من الموت (11:1-44).

## نحو فهم جديد للمعجزات

رأى المسيحيون الأوائل أن معجزات سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا) تبرز عمل الله من خلال شخصه، تماماً مثلما حدث من قبل مع سيدنا موسى (عليه السلام) وباقي الأنبياء. لكننا نعرف أن أشخاصاً آخرين استطاعوا أيضاً القيام بمعجزات. لذلك يشرح يوحنا في عدة أماكن أن هناك إشكالا يخص الإيمان بسيدنا عيسى المسيح إذا تأسس فقط على معجزاته. نقرأ في إنجيل (يوحنا 2:23-25).

"ولمَّا كانَ في القدس "أورشَلِيمَ" مُدَّةَ عيدِ الفِصح، آمَنَ باسمِه كثيرُ مِنَ النَّاس، لمَّا رَأوا الآياتِ الَّتي أتى بها. غَيرَ أنَّ يسوعَ (عيسى المسيح) لم يَطمَئِنَّ إليهم، لأنَّه كانَ يَعرفُهم كُلَّهم، ولا يَحتاجُ إلى مَن يَشهَدُ له في شَأن الإنسان، فقَد كانَ يَعلَمُ ما في الإنسان".

فقد رأى سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا) أن الأمر لم يكن بعد كما كان ينبغي أن يكون، و ذلك حين رأى الناس يتبعونه بسبب معجزاته فقط. وربما كان نيقوديمُس أحد هؤلاء لأنه قال لسيدنا عيسى المسيح:

"رابِّي، نَعْلَمُ أنَّكَ جِئْتَ مِنَ لَدُن اللهِ مُعَلِّماً، فما مِن أحَدٍ يَستَطيعُ أن يأتي بِتِلكَ الآياتِ الَّتي تأتِي بِها أنتَ إلاَّ إذا كَانَ اللهُ مَعَهُ" (يوحنا 2: 3).

لم يكن إقرار نيقوديمُس هذا كافياً في نظر سيِّدنا عيسى المسيح، لذا الذي ردَّ عليه قائلاً:

"الْحَقَّ الْحَقَّ أقُولُ لَكَ: ما مِن أحَدٍ يُمْكِنُهُ أنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ إلاَّ إذا وُلِدَ مِنْ عُلٍ" (يوحنا 3:3).

لقد فشل نيقوديمس في رؤية "ملكوت الله" لأنه لم يكن من الممكن له أن يراه كما ينبغي إلا إذا ولد من عَلُ. فسيدنا عيسى المسيح يتكلم عن الولادة من الماء والروح (3:5-6) والتي تعني القدرة على تجاوز المعجزات بقصد النفاذ إلى معانيها الحقيقية العميقة. ولا يمكن أن يرى ذلك إلا شخص انفتح على روح الله عز و جل. أما الذين يرون الأشياء بعيون بشرية فقط، فأولئك يتبعون سيدنا عيسى المسيح لانبهارهم بمعجزاته لا لشخصه هو.

كانت هذه الفكرة تساور سيدنا عيسى المسيح عندما ترجّاه شخص من حاشية الملك أن يشفي ابنه. فتحداه قائلا:

"إذا لَم تَرَوا الآياتَ والأعاجيبَ لا تُؤمِنونَ"(4:48).

إنهم في ذلك يشبهون الصورة التي رسمها الشاعر الصوفي فريد الدين العطار لأولئك الذين ينبهرون بقطرات الماء ويعجزون عن رؤية البحر الذي يرمز إليه بالحقيقة اللامتناهية حيث يقول:

"من يحضن البحر يملك القطرة . البحر فقط، والباقي هوس وخيال. لماذا تركض نحو القطرة، وأنت في طريق البحر؟"

بعد ذلك ما ننفك نرى الكثير من الجموع تتبع سيدنا عيسى المسيح بسبب معجزاته (2:6). فبعد معجزة إطعام الخمسة آلاف أراد هؤلاء تتويجه ملكاً لكنه لم يسمح بذلك (14:6-15). وفي اليوم التالي وبَّخهم من جديد بسبب عجزهم عن رؤية الأشياء كما ينبغي (26:6-27).

ثم ذكرت له الجموع معجزة نزول المنّ على بني إسرائيل في البرية، وطلبوا منه عمل آية بمستوى تلك المعجزة (30:6) فرد عليهم سيدنا عيسى المسيح قائلاً إن عند الله خبزاً روحيّاً حقيقيّاً يشبع به جوع الروح العميق. وأعقب رده ذلك بإعلانه العجيب:

"أَنَا خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَن يُقْبِل إِلَيَّ فَلَن يَجُوع، ومَن يُؤْمِن بِي فَلَن يَعْطَشُ أَبَداً" (35:6).

رغم الاختلاف الذي أثاره هذا الإعلان، نرى سيدنا عيسى المسيح يردده مرتين. بل ذهب إلى اعتبار الخبز جَسَده. بعد ذلك قال شيئا بدا لسامعيه غامضا، و أعاد قوله عدة مرات، وهو أن الذين يأكلون جسده ويشربون دمه ينالون الحياة الأبدية (53:6-58). وتلك صورة بشرية أراد سيدنا عيسى المسيح من خلالها التعبير عن منحه حياته قرباناً للآخرين، وهو بذلك يعلّمنا أنَّ الذين يتَّحِدون تماماً بروحه هم الذين يستحقون الحياة الأبدية، لأنهم يجعلون حياتهم تقتات في كل مناحيها بحياته. بهذه الصورة يفهم المسيحيون اتحادهم الصوفي بالمسيح، هذا الاتحاد الذي يحتفلون به بواسطة الخبز وشراب العنب في عيد شكرهم لله.

من خلال كل ما سبق نرى كيف أن سيدنا عيسى المسيح حاول جعل الناس يفهمون المعجزات على أنها علامات.و في الإنجيل الشريف حسب يوحنا يتم استخدام الكلمة اليونانية سيميا ''semeia'' التي تعني معاً المعجزات والعلامات. لكن الذين لا يستطيعون رؤية الأشياء إلا بعيون بشرية يبدون مأخوذين فقط بقدرة سيدنا عيسى المسيح على إجراء المعجزات.

لذلك يثير يوحنا انتباه القارئ إلى ضرورة تجاوز الرؤية البصرية المادية، والنفاذ إلى المعنى الروحي الخفي، حتى إذا تأتى له ذلك بدأ بقراءة الإشارات الإلهية في حياة سيدنا عيسى المسيح. والسيد المسيح نفسه يوجِّه الانتباه في العديد من المناسبات إلى خصوصية معجزاته مؤكّداً الفرق بينها وبين معجزات من سبقوه من الأنبياء.

## المعجزات كعلامات تدل على حقيقة السيد المسيح

يمثل الخبز صورة واحدة فقط من بين الصور العديدة التي يلجأ إليها يوحنا لوصف سيدنا عيسى المسيح.ففي البداية يستعمل يوحنا رمزي الحياة والنور للإشارة إليه (1:4-9). وقد استقى لا محالة هذين الرمزين من سيدنا عيسى المسيح نفسه الذي نراه بعد ذلك يلجأ إلى الصور ذاتها في إعلاناته عن نفسه. ثم هناك في كل حالةٍ معجزةٌ تشتغل كعلامة لتأكيد صور ذلك الإعلان. فمعجزة إطعامه الخمسة آلاف هي علامة تؤكد إعلانه " أنا خبز الحياة"، وشفاؤه الأعمى (1:9-41) علامة تجسد إعلانه "أنا نور العالم" (5:9؛ انظر أيضاً 12:8؛ 46:12). أما

إقامة لعازر من الموت وإعادته للحياة (11:38-44) فتأكيد لإعلانه : "أَنَا الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي، وَإِنْ مَاتَ فَسَيَحْيَا " (11:25؛ انظر أيضاً 14:6).

علاوة على صور الخبز والنور والحياة، يعلن سيدنا عيسى المسيح عن نفسه عبر صور أخرى عديدة مثل: أنا الباب (10:7-9)،... الراعي (10:11-14)،... الكرمة (15:1-5)،... الطريق (14:6). ويتحدث سيدنا عيسى المسيح أيضاً عن ماء الحياة الذي يعطيه (4:14). وقبل كل هذه الإعلانات يصف يوحنّا سيدنا عيسى المسيح بأنه الكلمة (1:1-14) حيث تبقى هذه الصورة عند المسيحيِّين واحدة من أهم الصور التي تشمل بشكل ما كل الصور الأخرى، أي كون سيدنا عيسى المسيح هو واهب الحياة، والنور، والخبز الحقيقي، والماء الحي. كما أن كونه الباب، والراعي، والكرمة، والطريق يجعله صلة الوصل بين البشر و الله.

ولإدراك معنى كل هذه الصور التي يستخدمها سيدنا عيسى المسيح في إعلانه عن نفسه بشكل عميق، ينبغي أن نفهم أن العديد منها كانت له دلالة خاصة لدى جمهور مخاطَبيه من اليهود، وهي دلالة مستقاة من مفهوم هذه الصور كما وردت من قبل في التوراة الشريفة. نقرأ في المزامير مثلا: "كَلِمَتُكَ مُصبَاحٌ لِقَدَمي وَنُورٌ لِسَبِيلِي. " (119:105). كما أن اليهود كانوا يصفون شريعة الله وكلمته بخبز الروح، والماء الذي يطفئ العطش. و شريعة الله وكلمته كانتا مصدر الحياة؛ كانتا النور.

في الإنجيل الشريف تتحول هذه الصور المستخدمة لوصف الشريعة إلى صور لوصف سيدنا عيسى المسيح نفسه. فكما كانت الشريعة هي الحياة والنور والحق، أصبح سيدنا عيسى المسيح الآن هو الحياة والنور والحق. فضلاً عن ذلك يخبرنا الإنجيل الشريف أن الشريعة في التوراة الشريفة لم تكن مانحة للحياة والنور والحق بل كانت فقط دليلاً إلى الحياة والنور والحق التي ستأتي في المسيح. يصف اليهود الشريعة بالمنّ (الخبز) النازل من السماء، لكن يوحنا يعلن أن سيدنا عيسى المسيح هو المنّ الحقيقي النازل من السماء (6:32). كما نقرأ أن سيدنا عيسى المسيح هو النور الحقيقي (1:9) والكرمة الحقيقية (15:1). ويخبر سيدنا عيسى المسيح أنه "أَنَا الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لاَ يَمضِي أَحَدٌ إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (14:6).

نعلم أن تعليم السيد المسيح لم يلقَ ترحيباً لدى معلمي اليهود لأنهم رأوا أنه يضع نفسه وتعليمه فوق التوراة الشريفة. واستخدامه لعبارة "أنا.." كانت تثير حفيظتهم لكونها تذكر بالطريقة التي أعلن بها الله عن نفسه لسيدنا موسى (عليه السلام) في العليقة المشتعلة: "أنا هو مَن هو" (سفر الخروج 14:3). كما أن النبي إشعياء يتحدث عن الله في إشارته إلى ذاته بعبارة "أنا هو" (13-10:43). هل كان سيدنا عيسى المسيح يعلن نفسه إلهاً آخر؟ كان أمراً لا يُستساغ عند اليهود الذين يؤمنون بالله الواحد. مع ذلك يخبرنا الإنجيل الشريف ليس فقط أن سيدنا عيسى المسيح هو الكلمة، بل يعلن أن جميع الأشياء قد تكونت به (3-1:1) وأنه قد جاء إلى العالم الذي كان هو قد كوّنه، و أن أهل بيته لم يعرفوه، رغم أن بعضهم آمنوا به. (12-10:1).

من المهم أن ننتبه إلى أن "كلمة الله" لا تعني كائناً آخر منفصلاً عن الله. فلا أحد يماري أن هناك إلهاً واحداً. "كلمة الله" تعود بنا إلى الله وهي من الله. كلمة الله هي ما نطق الله عز و جل به. نقرأ في الإنجيل الشريف حسب يوحنا: "الكلمة هو الله" (1:1). فلا يمكن فصل الله عن كلمته الخلاّقة. كما أن المؤمنين يعرفون أن هذه الكلمة الخلاّقة قد تجسَّدت بشراً على الأرض. والإنجيل الشريف يصف كلمة الله المسيح بأنه ابن الله الوحيد الذي أرسله إلى العالم ليشهد ويجسِّد رسالته (18:1؛ وأيضاً 34:1).

إن الفكرة المحورية في الإنجيل الشريف هي أن سيدنا عيسى المسيح يجسِّد الله، ويمتلك ذات سلطته في العالم. وبهذا المعنى يتكلم عن الله أباً له، وعن نفسه ابنا لله. فهو يتكلم كما يتكلم الله (34:3؛ 50:12)، ويعمل عمل الله (34:4؛ 17:5)، ويرشد الناس إلى معرفة الله (38:10؛ 3:17). وحين يتم عمله يعود إلى الله. وصور النور والحياة والحق والطعام والخبز والماء تنطبق جميعا على سيدنا عيسى المسيح، لأن الله هو كل هذه الأشياء، وسيدنا عيسى المسيح يجسِّده في كماله.

وحين تحدى اليهود سيدنا عيسى المسيح محتجِّين بما بدا لهم مساواة نفسه بالله، بسبب إعلانه أنه يعمل أعمال الله ويمتلك سلطته (18-17:5)، أجابهم سيدنا عيسى المسيح أنه إنما يعمل بذلك مشيئة الله مؤكّداً طاعة الابن للآب. ويردُّ بالقول عينه حين يُبدون انزعاجهم من إعلانه أنه والآب واحد (30:10) إذ يجيبهم أنه والله واحد لأنه يفعل مشيئة الله (39-31:10): هو الابن لأنه يفعل كما يفعل الآب.

وراء كل هذه التفاسير والتخمينات عمَّن يكون سيدنا عيسى المسيح تتضح حقيقة مفادها أن الناس حين كانوا يقفون وجهاً لوجه أمام سيدنا عيسى المسيح فإنَّما كانوا في العمق يقفون أمام الله. وبذلك نكون من جديد مدعوِّين إلى تجاوُز المستوى البشري في النظر إلى سيدنا عيسى المسيح، والنفاذ إلى المعنى الأعمق في شخصه. فمن خلال سيدنا عيسى المسيح كان الله يدعو الناس إلى الدخول معه في علاقة تمنحهم الحياة الحقيقية، والنور، والغذاء. لم تكن المسألة مسألة احتلال سيدنا عيسى المسيح المركز، بل إحلال الله ذلك المركز، لأن سيدنا عيسى المسيح كان دائم الإحالة إلى الله، ولم يعلن أبداً أنه الحياة، والنور، والحق بمعزل عن الله. بل كان يعلن أنه انعكاس وتجسيد لطبيعة الله بحيث أن من كان يراه فإنّما كان يرى الله. سيدنا عيسى المسيح هو القصبة التي ينبعث من خلالها نغم روح الله في كماله.

هكذا إذاً، لكي نفهم المعجزات ينبغي النظر إليها على أنها علامات تشير إلى حقيقة أكثر عمقاً تتلخص في كون سيدنا عيسى المسيح هو واهب الحياة والنور والحق. وهذا هو المقصود بـ"رؤية ملكوت الله" وبالرؤية بعين الروح. فحتى الأخبارُ التي ليست معجزات تحتوي علامات تدل على الملكوت الآتي في سيدنا عيسى المسيح. بهذا المعنى أيضاً يصبح تحويل الماء إلى

خمر (2:1-11)، حكاية رمزية للخمر الحقيقية في العرس الإلهي العظيم الذي سيقيمه سيدنا عيسى المسيح في نهاية الأزمنة.

فطرد الباعة من الهيكل (2:12-22) علامة على مفهوم آخر للهيكل: هو سيدنا عيسى المسيح وأحباؤه. و لقاء سيدنا عيسى المسيح بالمرأة السامرية عند البئر (4:1-42) إبراز لسيدنا عيسى المسيح بصفته ماء الحياة الذي يطفئ العطش الداخلي العميق (4:4-15). والحديث مع المرأة نفسها يتناول صورة المفهوم الجديد للهيكل حيث يعبد العِباد بالروح والحق لا بالتواجد في بناء مادي (4:19-26). و شفاء ابن الرجل من حاشية الملك (4:26-52) وكذا شفاء المشلول (5:1-8) إبراز للحياة الجديدة التي يهبها سيدنا عيسى المسيح. و إطعام الخمسة آلاف (6:1-15) الذي سبق أن ناقشناه، والمشي على الماء (6:16-21) هما بمثابة صيغتين جديدتين لنزول المن على بني إسرائيل في البرية، ومعجزة عبورهم البحر الأحمر في سفر الخروج. هذه كلها علامات تشتغل من جديد في سيدنا عيسى المسيح بطريقة تجعل الأحداث والعلامات السابقة تبلغ غايتها فيه.

إن شفاء الرجل الأعمى احتفال بالنور الذي يهبه سيدنا عيسى المسيح. وهذه العلامة تقف في علاقة تبايُن حاد مع انشغال مناوئي السيد المسيح من اليهود بالقواعد والشرائع بدل الاهتمام بفعل الخير. هكذا يبدو سلوكهم علامة على سلبيتهم، بحيث صاروا يَبدون عمياناً، فيما الرجل الذي كان أعمى أصبح مُبصراً، على المستويين الجسدي و الروحي (9:39-41).

وقصة إقامة لعازر حيًّا أصبحت علامة على هبة الله للحياة الأبدية في سيدنا عيسى المسيح (11:1-44). فالمعجزة أعادت لعازر إلى الحياة حتى أجَل مسمى. لكنها بالنسبة إلى مَن ينظرون بعيون الإيمان تبرز أن الموت الجسدي أو ما سيحدث في نهاية العالم لم يعد مهمًّا، بقدر ما صارت مهمةً هذه المشاركة في الحياة الجديدة التي تتحدى الموت الجسدي وتتجاوزه. وبهذا المعنى تتضاءل القصة أمام المعنى العميق الذي تحيل عليه.

فحياة سيدنا عيسى المسيح كلها تبدو بمثابة علامة عظيمة تدل على الله، حيث كل فصل من هذه الحياة يشبه قطرة الماء التي تعكس النور. و نصبح نحن مدعوين إلى رؤية المحيط في قطرة الماء: الله متجلّياً في سيدنا عيسى المسيح. فالإنجيل الشريف كُتب أساسا لكي يكشف لنا هُويَّة سيدنا عيسى المسيح، وحياته وتأثيره. والتفاصيل والحوارات تؤدي جميعاً إلى هذه الغاية. وكقراء ومستمعين نصبح مدعوين إلى رؤية الصورة كاملة. لذلك نخطئ الهدف إذا نظرنا إلى قصص المعجزات أو القصص الأخرى على أنها تأريخ لسيدنا عيسى المسيح كشخص متميز ينتمي إلى الماضي. هذه القصص كتبت في الإنجيل الشريف أساساً لكي نرى بعيون الإيمان ما جاء سيدنا عيسى المسيح ليكشفه حتى نستجيب لنداء الله من خلاله، وننال فيه الحياة والنور والحق.

لكن يبقى موت سيدنا عيسى المسيح وعودته إلى الله أعظم العلامات إطلاقاً. فقد كانت علامة هزيمة وفشل في نظر العالم، فيما كانت علامة نصر وعودة للمجد في نظر من يرون بعيون الإيمان.لم تحقق تلك العلامة شيئاً بالنسبة لمنعدمي الإيمان، لكنَّها كانت بالنسبة للمؤمنين نقطة الانطلاق التي شكلت الأساس لاجتذاب الجميع نحو الإيمان. كانت تعني لأولئك سقوط سيدنا عيسى المسيح في النسيان، لكنَّها كانت تعني في عيون الحواريِّين، تلاميذ سيدنا عيسى المسيح، ارتفاعه إلى مجد الله.